فليات الحصار

غزة... قلعتنا الأخيرة

«لم تهزم ما دمت مقاوماً» تتناهى عبارة مهدي عامل ونحن نشاهد غزة حيث الحرية فعل يومي، على عكس مدن عربية كثيرة. صواريخ المقاومة على تعدد تياراتها، كشفت أنّ إمتلاك «أوراق اللعبة» لا يعني إمتلاك المصائر

عبدالله البياري*

أتذكر في خضم الأحداث الثورية في مصر، كنت أميل دوماً إلى فكرة التصعيد على حساب التسليح التي راجت بين شباب الثورة المصرية رداً على توحّش العسكر والداخلية وتحديداً في فترات محمد محمود وأحداث مجلس الوزراء والعباسية. الفارق بين التصعيد والتسليح كبير من حيث مخزون الردع/ التدمير في المواجهات، فالتصعيد لا يشترط أن يكون بالسلاح المركب «المعقد». قد يكون التصعيد وسيلة لتعطيل مخزون الردع/ التدمير الخاص بسلاح الطرف الآخر كالبندقية وقنابل الغاز، ما يفقده أفضليّته الميدانية. والمثال على ذلك كان جلياً في الثورة من خلال «الخل» والمشروبات الغازية وصولاً إلى الكمامات والدروع و«شبك» الحماية على الأعين لتعطيل فاعلية صائدي الأعين من ضباط الداخلية، في حين أنّ التسليح هو مواجهة السلاح بالسلاح، وهو ما قد لا يتقبّله البعض لأنه يرادف بين القتلة والوسائل.

إن تلك الفروقات التي قد تبدو غير متكافئة بالنسبة إلى معايير القياس المادي الرادع، قد رجّحت كفة الثوار في مواجهة الدولة لفترة كافية لم تنته بإنتصار الثوار ميدانياً، لكنّها عرت هزيمة الدولة ثورياً. والمواجهة الميدانية لا تحسمها أبداً قوة السلاح. وهذا ما يشهد عليه التاريخ الإنساني. مدينة ستالينغراد التي طال الحصار النازي لها، إلى درجة أن بدأ سكانها يأكلون جيف موتاهم، هزمت بأبسط السبل عنجهية هتلر وقوته. كذلك كانت المقاومة الجزائرية في وجه الإستعمار، والثورة اللاتينية، وحرب فيتنام وهزيمة الأميركي، وحرب تموز الإسرائيلية على لبنان، وصولاً إلى النموذج الحضاري الأهم في تاريخنا الحديث: الإنتفاضة وغزة الأبية.

غزة التي يقدم الإعلام مقاومتها على أنّها مقاومة «صفيح» لا تسمن ولا تغني من جوع، متجاهلاً تاريخاً إنسانياً قال ويقول دوماً: «ما إنهزم من قال لا»، أو كما وصفها مهدي عامل «لم تهزم ما دمت مقاوماً». القوة لا تقاس بمخزونها الرادع/ التدميري، أي بحجم ما تحدثه من تدمير/ تعطيل، فالبندقية في يد المحتل هي ذاتها في يد المقاوم، بل قد تحرمه منها الإتفاقيات الدولية وسياسات «الممكن والمتاح»، فما الفارق إذن؟

القوة ليست في البندقية أو الحجر، بل في القيمة التي يمثلها كل منهما، وهو ما يعرف في علوم الإستراتيجيا والحرب «المخزون المعنوي/ القيمي»، تلك القيمة التي تدافع عنها البندقية ويذود عنها الحجر والصفيح من عدل وحرية وحق وغيرها من القيم التي لا تقاس بمادة ولا برقم، بل يدركها الإنسان بحسه الجمالي القيمي، وعلاقتها مع الظلم والإحتلال والقتل علاقة محسومة. من هنا كانت العقلية المقاومة متقدمة أخلاقياً وفكرياً وقيمياً عن المحتل والغاصب، ما شكّل لها هامش إبداع أكبر، ولنا في عز الدين الخطابي وفيتنام نماذج ذات دلالة توارثها أدب المقاومة. إلا أنّ أدل دليل على هزيمة الدولة والاحتلال أمام المقاومة كانت صواريخ المقاومة في غزة الأبية وأنفاقها. تلك الصواريخ والأنفاق التي أبقت جبين «أفقر بقاع الأرض» و«أكثرها نكبة» بالحصار الصهيوني (والعربي) عالياً غير مختزل في لقمة العيش والمادة والحاجة والفاقة. المقاومة لغزة كما الطعام والشراب والكهرباء، إحتياج لا مقايضة فيه، فالحرية في غزة فعل يومي، على عكس مدن عربية كثيرة.

إنّ صواريخ المقاومة في غزة على تعدد تياراتها من يمين ويسار، تكشف للأذهان العربية أنّ امتلاك «أوراق اللعبة» (99,9% من أوراق اللعبة في يد أميركا: السادات) لا يعني إمتلاك المصائر، إلا لمن لا مصير له. وهنا مربط الفرس، فغزة لا تقاوم ضد إحتلال فقط، لكنها تلقي بصواريخها (الكورنيت وغيرها) - مهما كان تركيبها بسيطاً بدائياً - في الذهن العربي عموماً، وتعيد إلى الأذهان أنّ الفجيعة العربية ليست في الإحتلال، ولكن في الوكالة عنه والإنبطاح له بإسم «الممكن والمتاح» السياسي، تلك هي عين الهزيمة. بعد إختراق وأسرلة المكان والوعي الفلسطيني في الضفة والمنافي، بات على المقاومة الفلسطينية - وتحديداً الغزية - مهمة لا تقل ثقلاً. إنّها مهمة تحرّر مضاعف في ظل خفة الوطن في عقول النخب السياسية الفلسطينية: تحرير الوعي الفلسطيني الذي بات يصف المقاومة إرهاباً لأنّ فلسطين بالنسبة إليه ليست مكانه ولا مصيره، ليقتل الشهيد في بلادنا مرتين، والنكبة نكبتين.

الفجيعة العربية ليست في الإحتلال بل في الإنبطاح له باسم «الممكن والمتاح» السياسي

أتذكّر فيلماً أميركياً من إنتاج عام 2001 بعنوان «القلعة الأخيرة» من بطولة المخضرم روبرت ردفورد وتأليف ديفيد سكاربا وإخراج المخرج (الإسرائيلي) رود لوري يحكي إنتفاضة يقوم بها سجناء سجن عسكري عُرف مأموره بالعنف والقتل، مستخدمين أبسط الوسائل (أدوات الطعام والحجارة) للسيطرة على السجن. لكنّ هذا الفيلم لا يعد شيئاً أمام المشهد الملحمي للشاب المصري يقف بصدره أمام مدرعة الأمن المركزي في 28 يناير المعروف بـ «جمعة الغضب». كذلك هي غزة، تقف أمامنا منتصبة كاللغة في زمن الخرس تنشد كلمات محمود درويش بحروف من ملح: «من هنا تكون غزة تجارة خاسرة للسماسرة ومن هنا تكون كنزاً معنوياً وأخلاقياً لا يقدر لكل العرب. ومن جمال غزة أنّ أصواتنا لا تصل إليها، لا شيء يشغلها، لا شيء يدير قبضتها عن وجه العدو، لا أشكال الحكم في الدولة الفلسطينية التي سننشئها على الجانب الشرقي من القمر، أو على الجانب الغربي من المريخ حين يتم إكتشافه. إنها منكبة على الرفض».

* طبيب وكاتب فلسطيني

دبكة فلسطين ممنوع الدخول!

القدس — **مصطفى مصطفى**

«مليونية الاستقلال وإنهاء الاحتلال» شعار «الأسبوع الوطني للشباب الفلسطيني» الذي أقامته «السلطة الفلسطينية»، لم يُتح لقرابة مئة متضامن من الدول العربية من أصل 400، أن يُشاركوا فيه. بعد قضائهم خمسة أيام في عمان، منتظرين صدور التصاريح الإسرائيلية، أُبلغ هؤلاء بقرار المنع الإسرائيلي من دخولهم «أراضي السلطة الفلسطينية». وفي بيانٍ أصدره المتضامنون الممنوعون، أعلنوا «استنكارهم للإجراء الإسرائيلي الذي يعكس فكر وسلوك المؤسسة العسكرية الفاشيّة التي تحكم إسرائيل، ودأبت على إبعاد الشهود عن جرائمها المتواصلة بحق الشعب الفلسطيني...». لكن قضية منع «إسرائيل» متضامنين عرباً من الدخول الى فلسطين المحتلة، أثارت تساؤلات أخرى داخل المتضامنين أنفسهم. أشار الكاتب والسينمائي العُماني عبد الله حبيب (الصورة) الذي طاله قرار المنع مع زميله الشاعر سماء عيسى إلى أنّ «الموقّعين على البيان هم ستون شخصاً فقط من بين المئة الممنوعين». واستغرب حبيب موقف «هؤلاء الأربعين غير الموقّعين من الأشقاء العرب الذين تقدم بعضهم بنصائح «حكيمة» من قبيل أنّ علينا أن نشكر الإسرائيليين أنهم وافقوا على دخول معظم المدعوين، وأن علينا، نحن الممنوعين، أن لا نصعِّد الموضوع»! وأكد حبيب أنّ المنع الإسرائيلي كان «موجهاً ضد أشخاص لا ضد وفود؛ فقد تم الترخيص لبعض أعضاء الوفود العربية، بينما مُنع آخرون في الوفد نفسه بسبب مواقفهم». لكن ماذا عن القيادة الفلسطينية التي حرص المتضامنون الممنوعون على دعمها في بيانهم؟ على طريقة مجالس العزاء و«الأخذ بالخاطر» التي يبرع في أدائها مسؤولو «سلطة أوسلو»، ذكر حبيب: «بعدما تأكد خبر المنع «الإسرائيلي»، أرسلت إلينا السلطة الوطنية وفداً من رام الله ليعيننا على تحمل الموقف العسير. بينما الذين أخذوا التراخيص لم يجشموا أنفسهم عناء إصدار بيان يدينون فيه منع مواطنيهم من السفر». يُذكر أنّ الأسبوع الوطني...» الذي اختتم أخيراً، ترأس لجنته العليا اللواء جبريل رجوب وتضمن أنشطة غلب عليها الطابع الفولكلوري من زرع الأشجار وعروض الدبكة. لكن النشاط الأبرز كان «السلسلة المليونية» البشرية التي هدفت الى قطع الطرق على المستوطنين. وقد جنّدت «السلطة الفلسطينية» موظفيها لتشكيل هذه السلسلة في مدن فلسطينية عدة؛ لكنّ «السلسلة» لم تستغرق سوى ساعات، وبدا كأن هناك اتفاقاً مضمراً على عدم تجاوزها لمظاهر الاحتجاج السلمي الهشّ.

منعت إسرائيل 100 متضامن من الدخول وامتنع 40 منهم عن توقيع بيان ضدها

بيان

مثقفو المغرب والجزائر: فلتسقط الأسوار

سعيد خطيبي

ثمانية عشر عاماً مرّت، وما زالت الحدود البريّة بين الجزائر والمغرب مغلقة. تحوّلات سياسية كثيرة مست البلدين طوال العقد الماضي، رافقها تغيّر في القيادات السابقة. مع ذلك، فمسألة الحدود لم تنفرج، وحالة القطيعة الثنائية بين الطرفين ازدادت عمقاً، ما انعكس سلباً على آلاف العائلات التي تعيش على الحدود، ودفع مثقفين وناشطين من البلدين إلى إطلاق بيان «الهوية الموشومة». هذا الأخير يمثل أرضية عمل شبكة حوار مغاربية ستحمل الاسم نفسه، وتتخذ من مطلب إعادة فتح الحدود أولويةٍ لها، إضافة إلى طرح قضايا أخرى تهمّ الشباب والمثقفين في المنطقة. هذه المبادرة المستقلة التي تحمل صبغة ثقافية، تأتي في وقت يشهد فيه المغرب العربي مخاضاً عسيراً. بعد ثورتي تونس وليبيا اللتين ما زالتا مستمرتين، تجد المنطقة نفسها اليوم في مواجهة انفلات الوضع الأمني في شمال مالي، وتوسع نشاط تنظيم «القاعدة» في بلاد المغرب الإسلامي، ما يحث على ضرورة تسريع جهود التعاون الثنائي وحل الخلافات العالقة، حفاظاً على استقرار المنطقة.

بيان «الهوية الموشومة» ركز على الرابط التاريخي العريق الذي يجمع بين الجزائر والمغرب، والتواصل العرقي والسوسيولوجي بين البلدين. وجاء في مطلعه: «لما نفصل بين بلدين متجاورين، فنحن نفصل بين طرفي تاريخ مشترك. الجغرافيا ليست فقط علامات ومعابر وحدوداً برية أو بحرية، بل هي أيضاً جزء لا يتجزأ من الهوية الإنسانية. إقامة حاجز بين شعبين متآلفين، مترابطين عرقياً وسوسيولوجياً، هي محاولة صريحة لإحداث شق في ذاكرة واحدة، تمتد إلى مئات السنين».

الحدود بين البلدين الشقيقين (حوالى 1500 كلم) المغلقة منذ عام 1994 عقب تفجير مراكش، وتوجيه وزير الداخلية المغربي الأسبق إدريس البصري (1938 — 2007) أصابع الاتهام إلى الجزائر، تلقى خلافاً رسمياً، وإجماعاً شعبياً في الداخل على ضرورة تسويتها وفك النزاع. نقاط التقاطع بين الجزائر والمغرب، اجتماعياً وثقافياً وفنياً، لا يمكن حصرها، وخصوصاً على مستوى الأفراد والجماعات. وقد أشار البيان إلى بعضها حين أورد «الرواية المغربية سنوات الستينيات تقرأ باعتبارها تواصلاً مع الرواية الجزائرية. محمد ديب، إدريس شرايبي، كاتب ياسين، محمد خير الدين، نبيل فارس، آسيا جبار، عبد الكبير الخطيبي، رشيد بوجدرة والطاهر بنجلون، كلهم كتّاب من طينة واحدة، ومن حساسية مغاربية مشتركة. ومجلة «Souffles» (أنفاس) التي تأسست عام 1966، بمبادرة من الشاعر عبد اللطيف اللعبي، شاهد على التلاقي الأدبي بين المغرب والجزائر». المبادرون إلى البيان وإلى تأسيس شبكة الحوار المغاربية «الهوية الموشومة» يحلمون بلقاء جديد، وبهوية مغربية - جزائرية موحدة، مؤكدين في النهاية أن «الحملات الاستعمارية، الفرنسيةّ والإسبانية، لم تزد الشعبين، المغربي والجزائري، طيلة القرنين الماضيين، إلا تقارباً، وتطلعاً نحو محو إرث الجغرافيا الكولونيالية».

مبادرة ثقافية مستقلة تنادي بإعادة فتح الحدود